

الثقافة العربية الإسلامية بين الاختلاف والتنوع

د. محمد العربي بوعزيزي
مدير المعهد الأعلى للشريعة بتونس.

إنّ الحوار بين الثقافات والحضارات يساهم في التقارب بين الأديان ويسعى إلى تقديم الصورة الصحيحة للثقافات وإزالة الحواجز المتركمة والناجمة عن سوء الفهم المتبادل وما تختزله ذاكرة جماعة أو شعب آخر.

الأمر الذي يجعل من الحوار ضرورة تفرضها الحياة الإنسانية من أجل بناء علاقات وطيدة بين الأمم شعوباً ودولاً.

والحوار أسلوب من التعامل الحضاري الرّاقى الذي يمنح المتعاطين له إحساساً حقيقياً بالانتماء الإنساني والإقرار لما هو مشترك بينهم من ناحية أخرى . وبناءً على ذلك تصبح المجتمعات البشرية على ما بينها من تباين وتمايز أميل إلى تقبّل الآخر باعتباره أخاً وصديقاً يقاسمها المصير المشترك ويتعاون معها على جعله مصيراً مشرقاً وليس باعتباره عدواً قائماً أو محتملاً يتعيّن الخوف والتّخوّف منه والكيد له وحتى التّفكير في القضاء عليه (1).

(1) جمعية البرلمانيين التونسيين : حوار الحضارات والتّضامن الدولي، تونس، 2002، ص 16.

ويأتي حوار الثقافات والحضارات للرد على مقولة صراع الحضارات وصدامها التي أطلقها في أواخر القرن الماضي المنظر الأمريكي "صموئيل هنجنتون" والتي تلقى رواجًا اليوم لدى بعض الأوساط المتعصبة في ظل عالم تتعده الحروب والمواجهات المدمرة وتعطيها الذرائع لبسط نفوذها على العالم أجمع وتقف من حضارته مواقف معادية وتجعل من أصحابها وخاصة المسلمين ودينهم في مقام الأعداء الذين تجب مواجهتهم.

ونتيجة لذلك تصبح المجموعات البشرية تعيش في ظل خوف متبادل وحروب مدمرة تهدد السلم والأمن والتعايش في المجتمعات الإنسانية.

ولعل ما سيلقى في هذه الندوة الدولية العلمية من قبل العلماء الأجلاء والمتخصصين في الدراسات الدينية والحضارية سيمثل خير رد على أصحاب المقولات العنصرية ودعاة التفرقة بين الشعوب والثقافات والحضارات والأديان والسعي إلى إرساء ميثاق للتعايش والاحترام المتبادل بينها.

وفي هذا الإطار تأتي مداخلتني "الثقافة العربية بين الاختلاف والتنوع والتعايش مع الآخر".

وتقوم المداخلة على العناصر التالية :

* مفهوم الثقافة والحضارة والتعايش، والآخر.

* الثقافة العربية الإسلامية بين الاختلاف والتنوع.

* صور من التعايش في ظل الثقافة العربية الإسلامية .

1 - مفهوم الثقافة والحضارة والتعايش، والآخر :

أ - الثقافة : لغة واصطلاحًا :

إنّ الرّاجع إلى المعاجم والقواميس المختلفة القديمة والحديثة بما فيها دوائر المعارف يجد أنّ مادّة الثقافة على تعداد اشتقاقاتها تعني :

الحق والفطنة والذكاء وسرعة التعلّم، والتّقيّف هو التّهذيب والتّقويم فيقال : تَقَفَ الشّيءُ ثقفاً وثقافة، إذا حدّقه، ويُقال للرجل ثقّف، ويقال للمرأة ثقاف (2).

فالثّقافة تعني الحق والفطنة والتّهذيب والتّقويم، والثّقافة تعني العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحق فيها وهي محدّثة (3).

هذا ما يرتبط بالمعنى اللّغوي الذي يجده الدّارس في المعاجم في مادّة ثقّف ومنه ثقافة، أمّا بخصوص المعنى الاصطلاحي الحديث، فإنّ لفظة ثقافة " Culture » في الفرنسية تعود للفعل اللّاتيني « Colère » الذي يُفيد التّربية والعناية ودوام التّعهد والاعتناء وعادة ما تُطلق لفظة Culture "في اللّغات الأوروبيّة ذات الأصل اللّاتيني" كالفرنسية والإيطالية، ليراد به الجانب الفكري من الحضارة، أمّا كلمة « Civilisation » فتُطلق على الجانب المادي (4).

ولا يجد الباحث تعريفاً جامعاً للثقافة، إذ تُشير دراسات عديدة إلى أكثر من مائة وستين تعريفاً نذكر منها تعريف " هنري لاووست " الذي يرى فيه أن الثّقافة هي مجموعة الأفكار والعادات المورّثة التي يتكوّن منها مبدأ أخلاقي لأمة ما، ويؤمن أصحابها بصحّتها وتنشأ منها عقلية خاصّة بتلك الأمة تمتاز عن سواها (5).

ويُعرّفها الباحث " لنتون " بأنّها طريقة حياة مجتمع من المجتمعات ومجموعة الأفكار والعادات التي يتعلّمونها ويشترون فيها من حين لآخر (6).

(2) ابن منظور : لسان العرب، دار المعارف القاهرة، مصر، دون تاريخ، مادة ثقّف، 492/1.

(3) راجع ما ورد في مادة ثقّف، المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية القاهرة .

(4) زرزور عدنان : إنسانيّة الثّقافة الإسلامية، مدخل وتمهيد، بيروت، لبنان، 1982، ص 26.

(5) الشريف نادية : أضواء على الثّقافة الإسلامية، ط 1، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، 1981.

(6) لنتون : الانثروبولوجيا والعالم الحديث، تعريب الناشف عبد الملك، بيروت، لبنان، 1967، ص ص 348-349 .

ويرى باحث معاصر أنّ الثقافة هي مجموعة الصفّات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح الرابطة التي تربط سلوكه بأسلوب في مجتمعه (7).

ب - الحضارة :

جاء في لسان العرب تحت مادة " حضر " أنّ الحضارة بفتح الحاء أو كسرها تعني الإقامة في الحَضَر أي في المدن والقرى بخلاف البداوة التي تعني الإقامة المنتظمة في البوادي (8) وورد في المعجم الوسيط في مادة " حضر " حضر فلانٌ أقام في الحضر والحضارة تعني الإقامة في المدن (في الحضر) (9).

والحضارة تعني كما ورد في نفس المعجم مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر، وهي مولدة محدثة استعملها المحدثون في العصر الحديث وشاع في الحياة العامة .

وورد في المعجم الفلسفي أن الحضارة يُراد بها جملة " مظاهر التّقدّم الأدبي والفني والعلمي والتّقني التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدّة مجتمعات، فيقال الحضارة الصّينية والحضارة العربية الإسلامية والحضارة الأوروبية، وهي بهذا المعنى متفاوتة فيما بينها، ولكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها، فنطاقها هو حدودها الجغرافية، وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد أو عدّة مجتمعات ولغاتها هي الأداة الصّالحة للتّعبير عن الأفكار السّياسية والتّاريخية والعلمية والفلسفية ... (10).

(7) جمال أحمد محمد : محاضرات في الثقافة الإسلامية، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، 1983، ص 44.

(8) ابن منظور : لسان العرب، مادة " حضر "، دار المعارف، القاهرة، مصر، دون تاريخ، 906/2-907.

(9) راجع ما ورد في المعجم الوسيط تحت مادة " حضر " .

(10) صالبيبا جميل، 1 / 475 - 477 .

ج - التّعاش :

جاء في لسان العرب⁽¹¹⁾ : عاش يعيش عيشاً : الحياة وعاشه، عاش معه : عاشره، والعيشة ضرب من العيش والمعاش والمعيش، والمعيشة : ما يُعاش به وجمع المعيشة معاش قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ (الأعراف : 7).

كما ورد في المعجم الوسيط : تعاشوا : عاشوا على الألفة والمودة ومنه التّعاش السلمي وعاشه، عاش معه، والعيش معناه الحياة، وما تكون به الحياة من المطعم والمشرب والدّخل⁽¹²⁾.

أمّا اصطلاحاً فيُراد بالتّعاش "التقاء إرادة أهل الأديان السماوية والحضارات المختلفة، العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم وتعيش الإنسانية في جوّ من الإخاء والتعاون لما فيه خير للناس كافة"⁽¹³⁾.

د - الآخر :

يُرد مصطلح " الآخر " أو " الغير " في القواميس اللغوية مقابل مصطلح " الذات " أو " الأنا "، كما جاء في تعريفات الجرجاني : ذات الشيء دلالة على نفسه وعلى عينه، والذّاتي لكل شيء ما يخصّه وما يُميّزه عن جميع ما عداه⁽¹⁴⁾.

والآخر بالفتح، كما ورد في لسان العرب أحد الشيئين ... ويرد بمعنى " غير " كقولك رجل آخر وثوب آخر⁽¹⁵⁾

(11) ابن منظور : لسان العرب، مادة " عاش "، 4 / 3190.

(12) المعجم الوسيط، 2 / 639 - 640، مجمع اللّغة العربية بالقاهرة .

(13) التّويجري عبد العزيز : الحوار من أجل التّعاش، ط 1، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1998، ص 76 .

(14) الجرجاني : التّعريفات، الدار التونسية للنشر، تونس، 1971، ص 57.

(15) لسان العرب، 1 / 38 .

تلك بعض المفاهيم المتعلّقة بالثقافة والحضارة والتّعايش والآخر يجمع بينها خيط رابط مع اختلافات دلالاتها، ويتمثّل في العلاقة القائمة بينها وبين الإنسان الذي يجعل من الثقافة سلوكاً يميّزه عن غيره من الموجودات باعتباره الكائن الوحيد المعني بالحضارة والتّعامل مع غيره والتّعايش معه من منطلق رنوّه إلى التّمتّن والتّحضّر والسّعي إلى إحلال التّعايش السّلمي بينه وبين بني جنسه من البشر على أساس الاحترام المتبادل والتّعاون المشترك في مجال الإبداع.

2 - الثقافة العربية الإسلامية بين الاختلاف والنّوع :

إنّ التّدخل القائم بين الثقافة والحضارة راجع إلى العلاقة الوطيدة بينهما، فيصبح كلاهما دالاً على الآخر، ذلك أنّهما يدلّان على تصوّر موحد للعالم إذا كانا ينضحان من منبع واحد سواء أعلّق الأمر بالدين أو باللغة أو بالعادات أو بالتقاليد أو بالفنون، وهذا ما ينطبق على الثقافة والحضارة العربية الإسلامية إذ كلاهما يدلّ على الآخر، وهذا راجع لارتباطهما بالمصادر الرئيسيّة ذات الصّلة والمتمثّلة في القرآن الكريم والسّنة النّبوية الشّريفة وتلازم انتشار اللّغة العربية مع انتشار الإسلام، إذ كان نزول القرآن باللّغة العربية، وكان النّبي المصطفى (ﷺ) عربياً، حتّى أنّ اللّغة العربية صارت من الدين، ومعرفتها فرض واجب، وأنّ فهم الكتاب والسّنة لا يتمّ إلّا بها. وما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف : 2). ومن ثمة كان للثقافة والحضارة العربية الإسلامية دعامتان أساسيتان : الإسلام والعربية، إذ غدتّ العربية لغة للثقافة والحضارة الإسلاميّة، وأداتها المعبّرة، والرباط الذي يربط بين أبناء الأمّة الواحدة التي تُدين بالإسلام، رغم تباين أصولها العرقيّة، فقد استطاعت العربية بما عُرِف عنها من غنى وخصوبة في مفرداتها أن تعبّر عمّا صادفه العرب المسلمون من علوم اليونان والفرس والهنود وغيرهم، بحيث ما

كاد ينتهي القرنان الأول والثاني للهجرة حتّى كانت خلاصة⁽¹⁶⁾ هذه الثقافات قد وقعت ترجمتها كلّها للسان العربي، وليس ذلك فحسب بل أظهرت هذه اللّغة مقدرة فائقة على تعريب بعض الألفاظ والمصطلحات ذات الأصل غير العربي ولم تقف عند ذلك الحد بل سرعان ما سعت إلى نحت مصطلحات جديدة أصيلة بعد أن دُوّنت بأحرف عربية من مثل " أرطيماطيقا "...⁽¹⁷⁾

أمّا الدعامة الثّانية للثقافة والحضارة العربية الإسلامية، فتتمثّل في الإسلام نفسه كما يؤكّد على ذلك معظم الدّارسين، إذ يرجعون مولدها إلى نزول الوحي السّماوي على محمد عليه الصّلاة والسّلام بغار حراء، والذي يبيّن بأنّه رسول الله للعالمين، وأنّه حامل لواء تلك الثقافة والحضارة إلى العالم أجمع⁽¹⁸⁾.

فلقد جاء الإسلام عقيدة تخاطب الرّوح والعقل معاً وتدعو إلى تهذيبها وتجمع بين الدّين والدّنيا، وتحقّق التّوازن بين متطلّبات الرّوح والمادّة فتحقّق بذلك الرّباط القوي والتّلازم المتين بين العربيّة والإسلام، ممّا دفع بالبعض إلى التّساؤل أيّ الصّنفين أرجح، العربيّة أم الإسلام ؟ وبعبارة أدقّ هل هي ثقافة وحضارة عربية إسلاميّة أم إسلاميّة عربيّة ؟

فكانت الأجوبة متباينة إذ هي عند البعض عربية إسلاميّة وإسلاميّة عربية عند البعض الآخر، وكلّ يسوق مبرراته، وإن كان الإسلام والعربيّة صنوين لا يفترقان، فعليهما حتماً أن يمزجيا على طريق واحد، فهما بمثابة اللّحمة والسّدى، وإن اختلفا في سرعة الانتشار، فسبقت اللّغة العربيّة الإسلام

(16) محاضرات في الثقافة الإسلامية، ص 369 .

(17) عاشور سعيد عبد الفتّاح : عُمان والحضارة الإسلامية، نشر جامعة السلطان قابوس، عُمان، 1989، ص 48 .

(18) الخربوطلي علي حسن : الحضارة الإسلامية، دار المعارف، مصر، 1977، ص 30 .

في عصر الخلفاء الراشدين وسبق الإسلام العربية في العصر العباسي، ولكن هذا السبق لم يأل بالمرّة إلى فصل أو تباعد بينهما (19).

وكان كل من يعتنق الإسلام عليه أن يتعلّم العربية لفهم القرآن الكريم من جهة والوقوف على أركان الإسلام وأحكامه من جهة أخرى.

وكثيراً ما كان انتشار اللّغة العربية يمهد إلى انتشار الإسلام وثقافته وحضارته، وذلك بشهادة كثير من الدّارسين وخاصة المستشرقين مثلما أثبت ذلك المستشرق الروسي "بيرتولد" في كتابه "الحضارة الإسلامية" حين قال "صار الإسلام ديناً رغبت فيه أكثر الشعوب، واتخذت العربية لغة لها بما في ذلك الشعوب غير المسلمة" (20).

وأرجع "بيرتولد" انتشار الإسلام واللّغة العربية إلى تسامح العرب الفاتحين اللذين لم يعتمدوا قوّة السّلاح لنشر لغتهم، كما فعل الجرمان والماغول والفرس، فقال "ويمكن تفسير رواج اللّغة العربية بأن العرب لم يعتمدوا على قوّة السّلاح كالماغول والجرمان والإيرانيين القدامى..." (21).

نجم عن كل ذلك تعايش إنساني وتفاعل حضاري لا نظير له في تاريخ النّقّافات والحضارات التي عرفها تاريخ الإنسان إلى حدّ أن أصبح الآخر جزءاً لا يتجزأ من الذات العربية الإسلامية إذ جعله الإسلام واجباً على أتباعه الاعتراف به والعيش معه كما جعل الأقوام والشّعوب والنّقّافات والحضارات المخالفة جزءاً من نسيجه في إطار التّنوع الإنساني الذي أراده خالق الكون.

(19) الخربوطلي علي حسن : الحضارة الإسلامية، دار المعارف، مصر، 1977، ص 30.

(20) برتولد فلاديمير : تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط 4، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966 ص 63.

(21) المرجع نفسه.

وهذا يؤدي بنا إلى التساؤل : ما حقيقة الاختلاف والتنوع الذي عرفته الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في أزهي عصورها.

3 - الاختلاف والتنوع :

إن المتأمل في المسألة يجد أن الاختلاف جبلة بشرية وسنة كونية، وذلك عائد إلى اختلاف المدارك وتفاوت العقول إذ جاء الإسلام مقرراً الإخاء البشري بصريح القرآن الكريم كما ورد في أكثر من آية من مثل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ ﴾ (الذاريات : 8)

وقوله جلّ جلاله : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ (مريم : 37)، وقوله جلّ شأنه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة : 48).

فإنه سبحانه خلق الناس على تلك الشاكلة من تباين العقول والمدارك، إلى جانب اختلاف ألسنتهم وألوانهم الأمر الذي يؤدي عادة إلى التعدد في الآراء والأحكام والمواقف، كما جاء في قوله جلّ شأنه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ (الروم : 22).

وإن كل ما في الكون يدلّ على أن الاختلاف سنة طبيعية (22)، إذ كل ما يشاهد على الأرض من رطب ويابس وحيّ وجامد لم يكن ليتمّ هو حاصل لو أنّ البشر خلّقوا سواسية في كل شيء، الأمر الذي ينجّر عن انعدام التباين والتّزاحم والتّنافس والتّعارض الذي يُلْزِم الأنام بكلّ جوارحهم طوال حياتهم بصريح الآية : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلَئِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود 118 - 119).

(22) الخربوطلي علي حسن : الحضارة الإسلامية، دار المعارف، مصر، 1977، ص 30.

ولا بُد من الإشارة إلى أنّ الاختلاف مظهر طبيعي في الاجتماع الإنساني وهو الوجه الآخر والنتيجة الحتمية لواقع التعدد أي أنّ التعدّد لا بد أن يستدعي الخلاف ويقتضيه (23).

فالاختلاف أمر واقع ومظهر طبيعي من مظاهر الحياة البشرية والاجتماع البشري كم يؤكّد على ذلك علماء الاجتماع وكما تتجلّى هذه الظاهرة بين الأفراد، تتجلّى بين الجماعات، فلا مجال لإنكار ظاهرة الاختلاف بما هي وجود متحقّق سواء من حيث الوجود المادي للإنسان أو من حيث الفكر والسلوك وأنماط الاستجابة.

هذا ولا يشكّل الاختلاف نقصاً أو عيباً بشرياً يحول دون انحراف المفاهيم والتطلّعات الكبرى للإنسان عبر التاريخ، وإنّما هو مكوّن أصيل من مكوّنات حقوق الإنسان.

ولذلك أقرّ الإسلام حقّ الاختلاف، واعتبره من العوامل الطبيعيّة وجعل التسامح والعفو سبيلاً للتعاطي والتعامل بين المختلفين من بني البشر، فالاختلاف إذن ناموس كوني وجبلة إنسانية (24).

وتبعاً لذلك فإن الإسلام دعا إلى التّواصل والحوار والمحبة والرحمة وتنمية الجوامع المشتركة (25) المقابلة للاختلاف إذ جاءت آيات الذكر الحكيم مؤكّدة على الأخوة والألفة والرحمة والدفع بالتي هي أحسن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلّت : 34).

(23) برتولد فلاديمير : تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط 4، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966 ص 63.

(24) المرجع نفسه.

(25) محفوظ محمد : الآخر وحقوق المواطنة، ط 1، نشر مركز الرأية للتّمية الفكرية، دمشق، سوريا، 2006-2005، ص 10.

وعطفاً على كل ذلك فإنّ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة لا تنتظر نظرةً أحاديّةً للتّاريخ الإنساني بل نراها تعتمد إستراتيجية التّنوع والاختلاف التي تستمدّها تحديداً من اعتراف الإسلام بذلك بصريح الآية الكريمة : ﴿... وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ...﴾ (هود 118-119).

ولكن هذا الاختلاف وهذا التّنوع - كما سبقت الإشارة إليه - هو إيجابي وبناء لا يُفضي إلى المنازعة والمجادلة المفضية إلى التّوتر والمواجهة والصّدام، ولكنّه يتدبّر بدثار العفو والرحمة والتّسامح والتّعايش مع الآخر.

فالهويّة الثّقافيّة العربيّة الإسلاميّة بما هي وعي الذات وليست إنشئاً جامداً، كما أكّد الحكيم والفيلسوف محمد إقبال (ت 1938 م)، لأنّ وعي الذات عنده هو شرط وعي العالم، ويتطلّب ذلك بناء علاقات سليمة مع الآخر إذ عن طريق الخصوصية الذاتيّة تتعرّف الشعوب على نفسها وتُعرّف بذاتها.

ولمّا كان الخاصّ هو المفضي إلى العام فإنّ الانتقال من الخصوص إلى العموم هو التدرّج المنطقي القويم مصداقاً لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات : 13).

ولا بدّ من الإشارة في هذا السّياق إلى أنّ الأنا تتحدّد من خلال الآخر والآخر يتحدّد من خلال الأنا وأنّ الهويّة هي التي تُحقّق تميّز الأنا عن الآخر، وتعطيه القدرة على تجاوز التّحدّيات.

والمتملّ في هذا السّياق، وفي خصائص الثّقافة العربيّة الإسلاميّة التي نحتت هويّة المجتمع العربي الإسلامي تجدها تستند إلى الرّبط بين الإيمان والعلم والعمل، وتتّصف بالإنسانيّة والواقعيّة والتّوازن بين الرّوح والمادّة والاستمرار والانتشار والتّنوع الثّقافي الذي هو مفهوم قرآني أصيل إذ جعل الخالق سبحانه التّنوع في طبائع البشر جبلةً كونيّة فيه إلى درجة أن كان هذا

التنوع سمة بارزة من سمات لثقافة والحضارة الإسلامية وخاصة التنوع الثقافي الذي ازدهر طوال ثمانية قرون عرفت فيها تعدد الهويات وتنوع المجموعات التي نالت رعاية منقطعة النظير.

وبناءً على ذلك، فإن الدارس يدرك أنّ الثقافة العربية الإسلامية لم تكن فاقدة التواصل والتناقص الحضاري، بل على العكس من ذلك فإنّ الانفتاح ورفض استبدادية المغلق كان سمة بارزة من سمات تلك الثقافة.

كيف لا وقد استطاع المسلمون الأوائل وبناء الحضارة الإسلامية أن يتمثلوا الحضارتين: اليونانية بعقلانيتهما ومنطقها، والفارسية بنظمها وروحانيتهما، إذ أدخلوا ما أخذوه من الحضارتين في صلب حضارتهما، فكانت الإفادة وكانت الإضافة في مجالات العلوم المختلفة، كالفلسفة وعلم الكلام والمنطق والتصوف والفقه وأصوله، واللغة، وسائر العلوم الإنسانية الأخرى.

وهذا بالتالي يؤكد على حركية الثقافة العربية الإسلامية وعدم جمودها على الرغم من قيامها على أصول ثابتة، وهذا ما جعل الفيلسوف المعاصر محمد إقبال (ت 1938) يثني على خاصية الحركة (26) داخل الثقافة الإسلامية ومقاومتها للجمود وللانغلاق وتشربها مبدأ العقلانية والاجتهاد، إذ يرى أنّ الإسلام كوحدة روحية مثالية يضمن مبدئين أساسيين يُساعدان الفرد والمجتمع على مسيرة التغير المستمر في العالم الواقع وهما ختم الرسالة والاجتهاد في الأحكام.

حدثت الإضافة بناءً على تلك الحركية التي عرفتتها الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في بحر قرنين من الزمان، فلم يأت القرنان الثالث والرابع إلا وقد بلغت النضج والازدهار الذي عكسته المراكز العلمية المتعددة والمتنوعة

(26) إقبال محمد : تجديد التفكير الديني في الإسلام، المبحث الخاص بـ " مبدأ الحركة في الثقافة الإسلامية "، القاهرة مصر، 1968.

في كل من بغداد والقيروان وقرطبة وإشبيلية في الأندلس، وبخارى وسمرقند في آسيا الوسطى، إذ كانت تلك العواصم بمثابة المنارات التي يُشعّ منها نور العلم وبريق الحضارة ليضيء آفاق الدنيا شرقاً وغرباً بما في ذلك أوروبا التي كانت تعيش ظلاماً دامساً.

فلقد ظلّ العرب قرونًا طويلة يحملون رسالة العلم والإبداع في شتّى فنونه، فكتبوا في ميدان الدراسات الإسلامية — كما أشرنا — وفي مجال العلوم الصحيحة من رياضيات وطب وفلك وصيدلة، فكانوا بحق رادة البشرية في ساحة الحضارة⁽²⁷⁾، فساهموا بذلك في بناء النهضة العلميّة العالمية وساعدوا أوروبا على أن تبني نهضتها. فكانوا بحق أساتذة العلم بلا منازع، كما شهد بذلك المنصفون من علماء أوروبا نفسها الذين اعترفوا بالفضل لدور الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في نهضتهم وتقدّمهم، وفي تقدّم الحضارة الإنسانية في مختلف الميادين.

فهذا الباحث " فلوريان " يقول : " كان للعرب عصرٌ مجيد عُرفوا فيه بانكبابهم على الدّرس وسعيهم في ترقية العلم والفن، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ أوروبا مدينة لهم بخدمتهم العلميّة التي كان لها العامل الأكبر في نهضة القرنين الثّالث عشر والرّابع عشر للميلاد " (28).

ويؤيّد هذا الرّأي ما ذهب إليه العالم الفرنسي " كرا دوفو " والمتمثّل في أنّ العرب كانوا على عكس الرّومان الذين لم يحسنوا القيام بالميراث الذي تركه اليونان، وإنّما حفظ العرب علم اليونان وأتقنوه، ولم يقفوا عند ذلك الحد بل

(27) طلفاح خير الله : حضارة العرب في الأندلس، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977، ص 7.

(28) طوقان حافظ : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، لبنان، بدون تاريخ، ص 25.

سعدوا إلى ترقية ما أخذوه باذلين الجهد في تطبيقه وتحسينه وإنمائه حتى سلّموه للعصور الحديثة، وهم فوق ذلك أساتذة أوروبا (29).

وأشاد الباحث " غوستاف لويون " بعلوم العرب التي أخرجت الغرب من توحشه وساعدته على التّقدّم فقال : " تجلّى لنا أن الشّرقيّين هم الذين أخرجوا الغرب من التّوحش وأعدّوا النفوس إلى التّقدّم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوروبا تُعولّ عليها، فانبثق عصر النّهضة منها ذات يوم " (30).

وتعدّ الباحثة الألمانية " سيجريد هونكه " خير مثال على الحياد والإنصاف العلمي، وعلى الاعتراف بفضل العرب والحضارة العربية الإسلامية على أوروبا، كما أكّدت على ذلك في كتابها الشهير " شمس العرب تسطع على الغرب " الذي تقول فيه : " إنّ النّاس عندنا في ألمانيا لا يعرفون إلّا القليل عن جهود العرب الحضارية الخالدة ودورها في نموّ حضارة الغرب ...، لذلك لا بدّ أن نقمّم للعرب الشّكر على فضلهم الذي حرّمهم من سماعه طويلاً تعصّب أعمى أو جهل أحمق ...، وأنّه حان الوقت للتّحدّث عن شعب قد أثر بقوة على مجرى الأحداث العالميّة، ويدين له الغرب كما تُدين له الإنسانية كافّة بالشيء الكثير " (31).

حدث كل ذلك إثر الامتزاج بين نتاج التّقافات والحضارات السّابقة على الإسلام، والتّقافة والحضارة الجديدة التي أنشأها العرب المسلمون بعد الفتوحات، واستقرار الأمور واستتبّابها، وإشعاع نور العلم من مراكز أصقاعها المختلفة، فتأسّست بذلك حضارة عظيمة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي

(29) المرجع نفسه.

(30) الخربوطلي علي : الحضارة العربية الإسلامية، ص 30 - 38.

(31) راجع ما جاء في كتاب الباحثة " سيجريد هونكه " شمس العرب تسطع على الغرب.

ظهرت قبلها (32)، وذلك بشهادة المنصفين من أعلام الغرب أنفسهم — كما وقعت الإشارة إلى بعضهم —.

فلقد كان للفنوح العربية طابع خاص لا وجود لمثله لدى الفاتحين الذين جاؤوا بعد العرب والبرابرة مثلاً الذين استولوا على العالم الروماني، والأتراك وغيرهم، استطاعوا أن يُقيموا دُولاً عظيمة، إلا أنهم لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا من حضارة الأمم التي قهروها، ولكن العرب أنشؤوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، وتمكّنوا بسرعة عجيبة أيضاً من حمل العناصر المختلفة والمتنوعة والموجودة في الأمصار التي فتحوها على اعتناق دينهم وتعلّم لغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة، ولذلك ظل نفوذ العرب بتلك الأمصار ثابتاً.

فالتفاعل بين الثقافة الجديدة ونتاج الثقافات السابقة كان حصيلة الانفتاح على الآخر والاستفادة من عطاءاته الفكرية والثقافية والحضارية في الميادين المختلفة التي نجمت عنها الحضارة العربية الإسلامية الزاهرة.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق : كيف كانت طبيعة العلاقة مع الآخر ؟ وكيف تمّ التعايش معه ؟ وأي صور لذلك التعايش في ظل الحضارة التي بناها رادة وقادة البشرية في ذلك الزمان ؟.

4 - صور من التعايش مع الآخر في ظل الثقافة العربية الإسلامية:

تجدر الإشارة بادئ ذي بدء إلى أنّ العلاقة مع الآخر تدفع إلى تحديده، إذ يختلف هذا الآخر مع الأنا، كما يختلف الآخر من دائرة إلى أخرى، وتبعاً لذلك، فإنّ الموقع الذي يحدّده الإنسان لنفسه (الفرد أو الجماعة) هو بدوره الذي يُحدّد الآخر القريب أو البعيد.

(32) الخربوطلي علي : الحضارة العربية الإسلامية، ص 77.

فالأخر مثلاً بالنسبة إلى دائرة الدين، هو ذلك الإنسان الذي ينتمي إلى دين آخر، أما الآخر بالنسبة إلى الذات فهو المغاير لها، ومن ثمة يمكن القول إنّ الآخر يتعدّد ويتنوّع ويتعدّد وتتوّع دوائر مستويات الأنا والذات، فينجم عن ذلك وجود آخر ديني ومذهبي، وحتى قومي وعرفي وإتني وجغرافي واجتماعي وسياسي (33).

ويجرّ كل ذلك إلى القول على لسان أحدهم " حدّد ذاتك يتحدّد الآخر ".
فالعلاقة بين الذات والآخر جدّ وطيدة، إذ لا يمكن تحديد الذات إلاّ بتحديد الآخر، ولا يمكن تجليتها إلاّ بوجود آخر مختلف ومغاير لها (34).

ومن هذا المنطلق كان الآخر واضحاً ومحدّداً في الإسلام لذلك جاء منذ انبلاجه داعياً إلى التّواصل الإنساني والتّعايش مع هذا الآخر والتّعاون بين شعوب المعمورة كافّة دون إقصاء أو تهميش.

ويحقّ للمسلمين من هذا المنطلق أن يُباهوا بتلك الدّعوة التي تضمنها القرآن الكريم والسّنة النبوية الشّريفة، وذلك الموقف النبيل الذي وقفه نبيّ الرّحمة محمد صلّى الله عليه وسلّم من الآخر وتحديدًا أهل الكتاب من يهود ونصارى بصريح الآية الكريمة : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران : 64).

والنّاس في الإسلام خلّقوا من نفس واحدة، وفي ذلك تأكيد على الأخوة والرّحمة والتّوَادد وهي قيم مشتركة تساعد على إرساء علاقة وطيدة بين الأنا والآخر بصريح الآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ (الأعراف : 189).

(33) محفوظ محمّد : في معنى الآخر ضمن كتاب " الآخر وحقوق المواطنة "، ص 15.

(34) المرجع نفسه.

والتعارف لا يحصل إلا بالتفاهم والتعاش والتآلف والتسامح والتعاون، فلا إكراه للآخر على اعتقاد لا يرضاه، إذ الاعتقاد لا يحصل إلا عن طوعية، والقرآن ينهى عن دفع الإنسان إلى اعتناق أية ديانة دون فهم، ودون إدراك لحقيقتها، إذ إيمان المكره هو استعباد وخضوع دون إرادة صاحبه بصريح قوله تعالى ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (البقرة : 256).

إن ظاهر الآية يكشف عن حماية للإنسان الآخر من أن يقع عليه الإكراه من قبل الأنا، ولكن باطنها يكشف أيضاً عن حماية الأنا من الآخر، فهي حماية متبادلة بين الذات والآخر كي لا يقع على كل منهما إكراه ما لا يرضاه.

والمعتقدات والثقافات لا يمكن أن تُبنى على الإكراه، لذلك راعى الإسلام هذا التوجه وأقر الحرية الدينية، ونهى عن الإيمان بالإكراه، وترك ذلك لرشد الإنسان، ولاختياره الحر حتى يتحقق بناء المجتمع الرشيد الذي يؤمن عن وعي، ويدافع عن حقوقه ومكاسبه بحرية، وبذلك الحرية يصون حريات وحرمان الآخرين ومكاسبهم.

وملامح التعاش والتفاهم في ظل الثقافة والحضارة العربية الإسلامية ثابتة في المصدرين الأساسيين : القرآن والسنة اللذين يدعوان دون مواربة إلى التواصل الفكري والاجتماعي والعائلي والأخلاقي بدليل جواز مخالطة أهل الكتاب ومصاهرتهم ومآكلتهم ومشاربتهم والتعامل معهم في كل مجالات النشاطات الاجتماعية مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ ... وَكَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة : 82)، وقوله سبحانه : ﴿ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامَكُمْ حَلَّ لَهُمْ ﴾ (المائدة : 05).

والثابت أن الإسلام كان دائماً معترفاً بالآخر، وأقرت ثقافته الاختلاف والتعددية، كما تعاملت مع كل الثقافات والحضارات التي تعاملت معها بالتسامح والعدل .

هذا وتعددت صور التعايش مع الآخر في ظل الثقافة العربية الإسلامية منذ العهد النبوي وحتى اليوم، ولم يتحول ذلك التعايش إلى إشكالية إلا بعد ما حاول الآخر فرض سيطرته ونموذجه المعرفي والاقتصادي والسياسي بالقوة والجبروت وتحويل الشعوب إلى تابع مُستلب. والمقام لا يسمح بسرّد كل صور التعايش مع الآخر، ولكن حسبنا الإشارة إلى البعض منها، وتحديدًا في عهد النبوة، وفي عهد بعض الخلفاء الراشدين وفي العهدين الأموي والعبّاسي.

أ - في العهد النبوي :

يجد الباحث في علاقة الإسلام بالآخر نموذجًا فريدًا في هذا التنوع إذ كانت حياة الرّسول صلى الله عليه وسلّم، المثلّ والقنوة في رسم معالم منهج التعامل مع الآخر، نصرانيًا كان أو يهوديًا أو حتّى مجوسيًا، وعلى دربه سار أصحابه وأتباعه ولعلّ أروع صورة يُصادفها المرء في هذا الشأن أمر الرّسول صلى الله عليه وسلّم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة وملكها النجاشي دون غيره، طلبًا للحماية، وحفاظًا على الدّعوة الجديدة، فوجدوا عنده كل الأمن والأمان، رغم ما تحمّلوه من مصاعب ومشاق لينعموا بالحماية والعدل المفقود في بلادهم في بداية الدّعوة المحمدية، ولم يتردّد واحد من المهاجرين وعلى رأسهم الصّحابيّ الجليل جعفر بن أبي طالب في تنفيذ الأمر بالهجرة إلى النجاشي بدعوى أنّه نصرانيّ وأنّه غير مسلم (35).

ويحدّثنا التاريخ أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام جعل " ابن أريقط " دليلًا له في هجرته للمدينة ولم يكن مسلمًا (36).

كما أنّه، صلوات الله عليه وسلامه قبلَ هديّة المقوقس عظيم أقباط مصر، والتمتّلة في ماريا القبطية التي بنى بها، وأنجب منها ولده الوحيد

(35) الجيلند محمد السيّد : الحوار مع الآخر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1999، ص 48.

(36) المرجع نفسه.

إبراهيم، فهو صَلَّى الله عليه وسلّم لم يرفض الهدية بدعوى أنها من غير مسلم، وقبلها قبولاً حسناً وأوصى بأقباط مصر خيراً⁽³⁷⁾.

أحدث الرسول الأكرم تحولاً حضارياً فريداً من نوعه، عميقاً في غرضه من أجل التعامل مع الآخر، فجاء ذلك الصنيع منسجماً مع صميم عقيدة الإسلام الداعية إلى الحوار ونبذ التعصّب والاضطهاد والإكراه، فأبطل التفاخر والتميّز القائم على اللون أو الدّم أو العرق بصريح قوله عليه الصلّاة والسّلام : " كلّم من آدم وادم من تراب "، و : " لا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلاّ بالتّقوى ... "، وقوله صلوات الله عليه : " من ظلم معاهداً أو انتقص حقّه أو كلّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة " (38).

ومن صور تعامل نبيّ الرّحمة مع الآخر إذنه لنصارى نجران بدخول مسجده الشريف، ولما حانت صلاتهم أذن لهم بالصلّاة فيه فصلّوا إلى المشرق (39).

ب - في عهد الرّاشدين :

وسار الخلفاء الرّاشدون على خطى الرسول الأكرم في تعامله مع الآخر، فهذا أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه وقف موصياً جيش أسامة بن يزيد قائلاً : " أيّها النّاس قفوا أوصيكم بعشرٍ⁽⁴⁰⁾ فاحفظوها عني :
- لا تخونوا، ولا تغلّوا.

(37) المرجع نفسه.

(38) رواه أبو داود في الخراج والإمارة .

(39) ابن هشام : السّيرة، 2 / 158 - 159 .

(40) أبو خليل شوقي : الإسلام والتّفاهم والتّعايش بين الشّعوب، دار الفكر، ط 1، دمشق، سوريا، 1997، ص 39 .

- ولا تغدروا ولا تمثّلوا.
- ولا تقتلوا طفلاً صغيراً.
- ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة.
- ولا تعفروا نخلًا، ولا تحرقوه.
- ولا تذبحوا شاة، ولا بغيراً إلاّ لمأكله ... " .

وتمثّل العهدة " العمرية" مع أهل " إيليا " بالقدس خير مثال في التّعامل مع الآخر ذلك أنّ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه لمّا حان وقت الصّلاة ودخل كنيسة بيت المقدس لم يصلّ داخل الكنيسة، حفاظاً منه وضماناً لبقائها بعهدة أهلها، وكى لا يُقال : هنا صلّى عمر، وسنجعل مكان صلاته مسجدًا، لقد خرج عمر رضي الله عنه وصلّى بجوار الكنيسة حيث بُني مسجد عمر .

هذا وقد أعطى عمر بن الخطّاب لأهل " إيليا " أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأن لا يُكرهوا على دينهم ولا يُضارّ أحد منهم ⁽⁴¹⁾.

ج- في عهد الأمويين والعباسيين :

وتتوالى صور التّعامل مع الآخر كما جاءت في العهدين السابقين، وخاصة أيام اتّساع الفتوحات العربية الإسلامية شرقاً حتّى السّند وما وراء النّهر حتّى حدود الصّين، وغرباً حتّى طليطلة وإشبيلية بالأندلس.

ومن مثال التّعامل مع الآخر والاعتراف به، والتّعايش معه، ما جاء في كتاب فتح السّند الذي تضمّن وصيّة فاتح الإقليم محمد بن القاسم التّقفي (سنة 96 هـ.) لجنده الفاتحين ما نصّه " لا تقتلوا أحدًا غير المسلّح المحارب، ومن كان بيده السّلاح وهو هارب فخذوه أسيرًا، ومن أراد الأمان وأعلن الطّاعة، فاتركوه، ولا تدخلوا البيوت الأمنة " ⁽⁴²⁾ .

(41) المرجع نفسه، ص 24 .

(42) المرجع نفسه، ص 32 .

هذا وعرفت أيام العباسيين تعايشاً عجيباً بين شعوب متعددة ومختلفة، جمعت بينها قيم خالدة، ساعدت على حسن العلاقة وجميل التفاهم، فلم تعرف الدولة في عهدهم نفرةً وتعصباً بين أهل الأديان، ولا بين المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، بل على العكس من ذلك، عرفت حياة إنسانية آمنة وخصيبة .

ومما أضفى على ذلك التنوع الثقافي زخماً شديداً إشراف خلفاء بني العباس على ما كان يدور من مناظرات كلامية وحلقات علمية احتضنتها المراكز العلمية التي كان لها إشعاعها المعرفي والعلمي، وخاصة " بيت الحكمة ببغداد " التي كانت تزخر بمشاهير العلماء من العرب وغيرهم، والمسلمين وغير المسلمين من النصارى النساطوريين الذين كان لهم الفضل الأكبر في ترجمة التراث الحضاري والثقافي للحضارات السابقة إلى العربية (43).

والثابت أن ذلك البناء الثقافي والمعرفي والحضاري ما كان ليحصل لولا جو التسامح والحرية والانفتاح على غير المسلمين في مختلف الاختصاصات العلمية والمعرفية من هندسة وجبر وفلسفة وطب وصيدلة ومنطق.

أدى كل ذلك الانفتاح والتواصل مع الآخر إلى أن تتفاعل الثقافة العربية الإسلامية مع الثقافات الأخرى وتأخذ منها وتضيف إليها، الأمر الذي أوصل إلى ذلك الثراء العلمي العالمي الفريد، وذلك التنوع الثقافي المتميز، وتلك الخصوبة الحضارية التي لم تعرف الإنسانية مثيلاً لها خلال الثقافات والحضارات السابقة ./. .

(43) الجهيني أحمد : الإسلام والآخر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2005، ص 254.

